

مكتبة الاستئناف

وأن أوان الجلسة في الاستئناف، فسرنا في طلب العدل والانصاف، وكل واحد منا مشغول بحاجته، لاه بنازله. فالباشا يفكر في مصيبيته ويتأم من بليته والحاجي يدبر في أمره، ويطلع لأجره. وأنا أسأل الله لنا النجاة، من مكاييد الحياة. ولا وصلنا إل حي « الاستماعية »، ورأى الباشا دورها وربانها، وشاهد قصورها ومعانيها، واستطاب رياضها وحدايقها، واستشقى رياضها وشقايقها، استوقفتنا سائلا مبهوتا، واستظننا بعد أن كنا سكونا. فقال: ألا تجترني عن موضع هذه الجثة الزاهرة، من مدينة القاهرة. فقلت له هذه « الاستماعية »، اختطها إسماعيل، فيما اختطه لزينة وادي النيل، يسكنها اليوم جماعة من العظماء، ذوى الغنى والأثر، وقد كانت في أيامكم خرابا قفرا، لا تحمل بيتا ولا ترفع قصرا ولا ترى فيها من البيات غير الطلح الضال، ولا من الأزهار غير شوك الفتاد أو شوك الستيال ولا من الطير غير اليوم والغريزة، أو الرخم والعقمان، ولا تجد فيها من الانس إلا لصا سائبا، أو معتالا ناهبا، أو فاتكا متأقبا، أو كامنا متروبا.

الباشا — لله در المصيرين، لقد ابتسم لهم الدهر، فأبد لهم من الشوك الزهر وأسكنهم هذه القصور العالية، بعد تلك الأطلال البالية.

الحاجي — أيها الأمير، لا تبط المصري على نعمته، وتعال فابك معنا من نعمته، فليس له في هذه الجثة من دار، يقر له فيها من قوار، وكل ما تراه من هذا الجانب، فهو ملك للأجانب.

الباشا — لله أبوك! كيف يختص الأجنبي دون الوطني بهذه الجنان الناضرة، وستائر دونه بهذه المساكن الفاخرة؟ ولملك تلنر في قولك وتحاجي، وتسمى في تعبيرك وتداحي.

الحاجي — لا تحجية ولا تسمية، بل هكذا قدر المصري لنفسه، وتبدل سمعه بنخسه، وافتتح من دهره بالآيون وبالطيف، ورضي بالقسم الحسن الضعيف، فبات محروما تحت ظل إهماله وخموله، وغدا بالناس في سباته وذموله، وما

طول الممارسة، وكثرة التجارب التي يجتازها ذوو الأسمان والأعمار.
ليس الحفاة عن علم بكافه

قد يُوجَد العلم في الشبان والفتيب

الباشا — ولنرجع إلى شأننا، فقد اتبعت آراءك وامتلأت نصائحك، وعرضنا أمرنا للجنة المراقبة فخرجنا منها بالخيبة كما ترى، فليس لنا بعد هذا التعب إلا الركون إلى حالة اليأس، ولم يبق لك بعد اليوم وجه في أي احتجاج وجهه ترجهني به، وتسحني معك للسعي والتظلم أمام الحكام.

عيسى بن هشام — لا تيأس ولا تقنط، فإن أمامنا محكمة الاستئناف، ولي اعتاد عظيم على إنصافها في الأحكام، ولو خاب فيها الأمل على الفرض والتقدير، فلا يزال عندنا باب العفو مفتوحا لننمسه بواسطة ناظر الحفائية.

الباشا — لا تنكر لي من الآن حاكا ولا ناظرا، فقد سمعت من وقوفي أمام هؤلاء الغلمان والشبان، مهما بالغت لي في الرفض، واستشبهت فهم بالشعر. عيسى بن هشام — ليس ناظر الحفائية الذي أذكره لك من صف هؤلاء الشبان وطراهم، بل رجل كهل، عاكف على العبادة، منكب على الأورد، منصرف إلى الأكار. يسي لبه قائما، ويصبح بهراه صائما، فينب السبحة وأصابعه عهد ويطاق، ويزن السجادة ووجهه ارتباط والتصاق. وبالجملة فهو يذكرنا في هذا العهد الجديد بعهدكم القديم، وأبوه رجل من أكبر رجالكم اسمه حسن باشا المناستري.

الباشا — حسن المناستري!! ذاك خليلي وقريني، وصاحبي وخدمتي، ورفيقي في الخدمة وأخي في الحكومة، ولماذا لم تجترني عن ابن أخي هذا من أول الأمر فكفون قد حققت ماء وجهي، وأنتفتنتي من كل هذه الاهانة وذلك التحقير؟

عيسى بن هشام — ما غاب عني أن أذكرك به، فإنه لم يكن له أقل نفع يدفع عنا ما تقلبنا فيه من المصائب، وإنما نفعه يكون في آخر الدرجات، ولا عمل تزوجه منه في مساعدتنا إلا بعد صدور حكم الاستئناف والسعي في التماس العفو من ولي الأمر.

عيسى بن هشام — ذاك عصر مضي، وحكم القضي، ولقد تفتن أهل العمور الماضية في وصف ما تذكره من منظر الأبهة والجلال، وهيبة العزة والوقار، حتى أدخلها الشعراء في محالهم البدعية، كقول أبي الطيب في ممدوحه مثلا :

جمع الزمان فما أزيد حالص
عما يتشرب ولا سرور كامل

حتى أبو الفضل بن عبد الله رؤ
يته المني وهو المقام الفائل

الحامي — قد آن أن تفرغ من هذا الحديث ؛ فقد اقتربنا من الحكمة. عيسى بن هشام — ولعلنا نجدها ياذن الله في مكانها، فقد تعودت النقل من مكان إلى مكان، حتى أشبهت خيام العرب :

يوما بخزوى ويوما بالعتيق ووال
عُذيب يوما ويوما بالخائضاه

ثم اقتربنا فوجدناها، وأقما في ساحتها ننظر نورتنا بين أرباب القضايا، حتى نودي علينا، ففقدنا للجلسة أمام ثلاثة من القضاة فأخذ الأجنبي منهم يقرأ « ملخص القضية » بلهجة أعجمية، وحرّوف لم تستوف محارّجها فقال : « إن هذا الرجل متهم بالعتي على فلان العسكري بالضرب في أثناء تأديته وظيفته في يوم كذا من شهر كذا، وألّتهم أكر، وشهد الأجنبي عليه، وول الكشف الطبي على وجود علامات فيه للضرب، والحكمة الابتدائية حكمت عليه بالسجن سنة ونصفا بالتطبيق على ما ذاق 124 و 126 عقوبات، فاستأنف الحكم عليه ». ولا سألت الحامي عن هذا التلخيص الغريب قال لي : هكذا تجري العادة هنا، فأتخذ مثل هذا القاضي الأجنبي عبارة الديباجة المذكورة في الحكم الابتدائي، فيجعلها تلخيصا للقضية، ثم يكتبها بعربيتها بحروف أجنبية، ليقرأها أمام الجلسة على نحو ما رأيت.

ثم الفتت رئيس الجلسة إلى الباشا وسأله عن اسمه وسنه وصناعته وحل إقامته، وأشار إلى الثيابة بالكلام، فشرح الثائب في شرح القضية على ما يوافق

زال الأجنبي يسمى ويكبد، ويعمل ويكد، ويال ثم يطمع، ويسلب ثم يجمع، والمصري يبدن بجانبه ويسرف، ويبدد ويغلب، ويتحسّر ثم يلهو، ويعجز ثم يزهو، ويفترق ثم يفتخر، ففساوى السيد والسود، وتشابه الحاسد والخسود وتعادل الرفيع والنيح، بالحقير والرضيع، واشتركا كنا في السوء، في منازل الشدة والبلاد، وأصبح نصيب القوي المكين، مثل نصيب الضعيف المستكين، وكذلك تكون عاقبة من يلقي للأجنبي بيديه، ومن أعان ظلالا ساط علىه :

ومن يجعل الضرعام كإرا لصبيته
تصبيته الضرعام فيما تصبيها

قال عيسى بن هشام : وما كاد ينتهي ريقاي من خطابهما، وفرغان من سؤالهما وجوابهما، حتى مرّ بنا راكب دراجة تنساب به كالصلال في بطون الزمال، وتخالل بها تمايل التسمون مالت به نشوة الخمر، وبتشي ابتداء الأخصان هزوا نسيم الفجر. فامتأ الباشا تعجبا واندهاشا، وسألنا الشرح والبيان، عن أمر هذا « البهلوان ». فقلت : هذه عجلة حادثة يجازها بعض الناس، على المركبات والأفراس، وما يرغم فيها أنها لا تأكل ولا تشرب، ولا تهزل ولا تتعب، وهذا الراكب من أهل القضاة، يركبها لرياضة الأعضاء، فأتبعه الباشا نظره، فوجده قد سقط فجأة من فوق دراجته، فانفرد عقد العزيمة على سطح الأرض إلى ثلاثة أقسام : الراكب والعجلة والطرش، ثم رأينا تمايل للقيام فلم نسمعه وحارل أن يعلو الدراجة ثانية، فلم يقدر عليها، فمسحها بيده بجرحها وبناشيتها، وأخذ الباشا يجالطنا فيه وفيها.

الباشا — يا جندا لو عدنا من حيث أتينا، وكنا مطلقين لانا ولا علينا، وكيف يكون شأن القاضي أو الحاكم إذا كان هذا منظره، وذاك مركبه أمام أعين العامة ؟ وهل حكم الناس يوما بغير أهبة الحجاب، ووظيفة المناظر، ووخامة المراكب ؟ وقد كان الحاكم أو القاضي لا يركب في عصرنا إلا في مركب تحف به الحشم والأصوان، وتتقدمه الجنود والفرسان، فترجف منه القلوب رعبا، وتخر له الأعناق رعبا، وقل من يجترىء من الناس على ارتكاب ما يقفه أمامه يوما موقف التهمة والارتباب.